



خطبة صلاة الجمعة 24 / 7 / 2015 للشيخ الطبيب محمد خير الشعال، في جامع أنس بن مالك، دمشق - المالكي

(السَّامَاةُ وَالتَّسَامُحُ)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونستترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرشدًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله، وصفيُّه وخليفه، خيرُ نبيِّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون، ولو كره من كرهه، اللهم صلِّ على سيدنا محمدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسي بتقوى الله تعالى، وأحثكم وإيائي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: 90].

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: (هَذِهِ أَجْمَعُ آيَةٌ فِي الْقُرْآنِ لِحَيْرٍ مُّتَتِّلْ، وَلِشَرٍّ يُجْتَنَّبْ).

روى الترمذي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «مَا مِنْ شَيْءٍ يُوضَعُ فِي الْمِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ، وَإِنَّ صَاحِبَ حُسْنِ الْخُلُقِ لَيَبْلُغُ بِهِ دَرَجَةً صَاحِبِ الصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ» [الترمذي].

أيها الإخوة:

كل عام وأنتم بخير، ها قد انتهى رمضان وها نحن نعود إلى سلسلة خطب فضيلة- أخلاق تعاملية. وهذه هي الخطبة الثانية والعشرون فيها، وقد تكلمنا في هذه السلسلة عن الصبر التعاملي، وعن تحمل المسؤولية، وعن محبة الآخرين والتحبب إليهم، وعن الحياء، والشكر، والحلم، والصدق، واللطف، وبرِّ الوالدين، ومراعاة الآداب العامة، والرجوع عن الخطأ. بإمكانك التدرب على الخلق الحميد لتكتسبه، وبإمكانك التخلي عما علق بك مما لا يليق بمثلك. وهذا هدف السلسلة.

عنوان خطبة اليوم: (السَّامَاةُ وَالتَّسَامُحُ)

أيها الإخوة:

تدلّ مادّة (س م ح) في اللغة كما يقول ابن فارس على معنى: السّلاسة والسهولة.

وتدلّ السّماحة في الاصطلاح على وجهين:

الأول: بذل ما لا يجب تفضُّلاً (ولُئِسمَه: سماحة).

والثاني: الملاينة مع الغير في المعاملات المختلفة (ولُئِسمَه: تسامحاً).

قال تعالى: ﴿وَلِإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ

الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: 237]

هذه سماحة.

عن أبي مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «خُوسِبَ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ

قَبْلَكُمْ فَلَمْ يَوْجَدْ لَهُ مِنْ الْخَيْرِ شَيْءٍ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ يَخَالِطُ النَّاسَ، وَكَانَ مُوسِراً، فَكَانَ يَأْمُرُ غُلَامَانَهُ أَنْ

يَتَجَاوَزُوا عَنِ الْمَعْسَرِ. قَالَ: قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: نَحْنُ أَحَقُّ بِذَلِكَ مِنْهُ، تَجَاوَزُوا عَنْهُ» [مسلم].

هذا تسامح.

﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾ [النساء: 4]

هذه سماحة.

عن عطاء بن فَرّوخ مولى القرشيين: أَنَّ عَثْمَانَ رضي الله عنه اشترى من رجل أرضاً فأبطأ عليه،

فلقيه فقال له: ما منعك من قبض مالك؟ قال: إِنَّكَ غَبْتَنِي، فما ألقى من النَّاسِ أحداً إلّا وهو يلومني.

قال: أو ذلك يمنعك؟ قال: نعم، قال: فاختر بين أرضك ومالك، ثمّ قال: قال رسول الله صلى الله

عليه وسلم: «أَدْخَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْجَنَّةَ رَجُلًا كَانَ سَهْلًا مُشْتَرِيًا وَبَائِعًا، وَقَاضِيًا وَمُقْتَضِيًا» [النسائي].

هذا تسامح.

أيها الإخوة:

الناس على اختلاف مستوياتهم في الذكاء والثراء، منهم الهَيِّتُونَ اللَّيِّتُونَ السُّمَحَاءُ، ومنهم النَّكِدُونَ

الْمُتَشَدِّدُونَ الْمُتَدَمِّرُونَ.

فأصحاب السّماحة والتّسامح محبوبون مرزوقون مسرورون، وأصحاب التّكد ممقوتون مرضى

موتورون.

فمن خشن الطبع ومن لين

والناس كالأرض ومنها هم

وإنمذ يوضع في الأعين

فجندل تدمى به أرجل

- تخرج إلى السوق فتصادف من الباعة سُحَاء طُلُقَاء الوجوه، فتجد قلبك مجذوباً إلى الشراء منهم والتعامل معهم، حتى لو كانت بضاعتهم أقل جودة من بضاعة غيرهم.

وتصادف آخرين نكدين عبوسين شرسين متشددين، فتتفر من الوقوف عندهم والتعامل معهم، ولا تشتري منهم إلا مضطراً.

- تُدعى للنظر في خصومة بين صديقين: أحدهما متسامح متساهل، يخبرك أنه راضٍ بما يحكم به الإنصاف ونازل على ما يقضي به العدل، وهو من الآن معتذرٌ عن كل سوءٍ بَدَرَ منه ومسامحٌ صديقه بكل ما أشاع عنه.

وتسمع من الثاني التشديد والوعيد، وأنه لا يرضى إلا أن تحكم له بما يريد، وأنه لن يتنازل عن مثقال ذرة، وأن هذه الجلسة هي جلسة الفراق بينه وبين صديقه القديم وخصمه الجديد.

- يصاحب رجل صديقاً خمسين سنة ثم تبدر من هذا الصديق بادرة؛ فإذا بصاحبه يغسل يده منه ويهجره هجراً لا وصل بعده، ويحذف اسمه من قاموس حياته.

- تحجز كرسيّاً لها في المسجد، فإذا جاءت من تجلس عليه أو تحتاجه صرخت فيها الصوت الذي ترتج له القاعة.

- وأخبرني من رأى طاعناً في السن يصلي في مسجد، وقد اعتاد أن يصلي قرب الجدار ليسند ظهره عليه إذا هو انتهى من صلاته، أخبرني أنه صلى غلام صغير مكان ذاك الرجل إذ لم يجده فيه فما كان من المسن إلا أن جاء من خلف الغلام ليحمله وهو في صلاته ويؤخره عن مكانه.

- ويتخاصم زوجان فتمضي الزوجة إلى أهلها وتحلف ويحلف ذووها أن زوجها لن يرى بعد اليوم ظفرها ولن يتنسم بعد الآن عبقها.

وعندما ينظر أهل المشورة والرأي في المسألة يجدونها أبسط من هذا القرار المتشدد بكثير.

«ألا أخبركم بمن يَحْرُمُ على النار، ومن تَحْرُمُ عليه النار؟ على كلِّ قريبٍ هَيِّنٍ سَهْلٍ».

هكذا روى الترمذي بسنده عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وروى البيهقي حديثاً مرسلًا عن مكحول قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**المؤمنون هَيِّنُونَ لَيِّنُونَ كَالْجَمَلِ الْأَنْفِ، إِنْ قِيدَ انْقَادَ وَإِنْ أُنِيخَ عَلَى صَخْرَةٍ اسْتَنَاحَ**».

والجمل الأنف: هو الذلول السهل الذي يطيع صاحبه ولا يعصيه، فهو يأنف من الزجر والضرب ولا يحوج صاحبه إلى أحدهما.

إنه إن لم يكن بين الناس تسامح وسماحة فليس ثمة إلا التدابر والأضغان والأحقاد التي تملأ الصدور فتضيّقها وتوغر القلوب فتوجعها وتكدر الأنفس فترهقها.

أيها الإخوة:

إذا كان هذا فضل السماحة والتسامح ووزر الأحقاد والتشديد، فكيف يتخلق أحدنا بخلق سماحة النفس.

هاكم خمسة أمور تعين على التخلق بخلق السماحة:

أولها: بادر الناس بالتحية والسلام، واستقبلهم بالبشر والابتسام.

ثانيها: غُضِّ بصرك عن زلات إخوانك، فكلنا خطاء واقبل معذرة من اعتذر إليك:

روي عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**مَنْ اعْتَذَرَ إِلَى أَخِيهِ فَلَمْ يَعْذُرْ، أَوْ لَمْ يَقْبَلْ عُذْرَهُ، كَانَ عَلَيْهِ مِثْلُ خَطِيئَةِ صَاحِبِ مَكْسٍ**» [ابن ماجه].

وفي رواية: «**مَنْ تَنَصَّلَ إِلَيْهِ فَلَمْ يَقْبَلْ، لَمْ يَرُدَّ عَلَى الْخَوْضِ**». [رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ].

ثالثها: اختر الأيسر والأسهل في كل أمر تحيّر به مالم يكن إثماً:

فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما حَيَّرَ بين أمرين إلا اختار أيسرهما مالم يأثم، فإذا كان الإثم كان أبعدهما منه.

رابعها: تنازل عن الأمور الفرعية التي لا تضر:

فبهذا التنازل تتجنب كثيراً من الصِّراع والخصومة، وتكسب كثيراً من المودّات والصّداقات.

في صلح الحديبية دعا النبي صلى الله عليه وسلم عليّاً ليكتب الكتاب، فأملى عليه «**بسم الله الرحمن الرحيم**» فقال سهيل بن عمرو سفير المشركين: أما الرحمن فو الله لا ندري ما هو؟ ولكن اكتب: باسمك اللهم.

فأمر النبي صلى الله عليه وسلم عليّاً بذلك.

ثم أُملي: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله، فقال سهيل: لو نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت، ولا قاتلناك. ولكن اكتب: محمد بن عبد الله.

فقال: «إني رسول الله وإن كذبتُموني»، وأمر علياً أن يكتب: محمد بن عبد الله، ويمحو لفظ: رسول الله.

فأبى علي أن يمحو هذا اللفظ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أرنيها»، فأشار علي إليها فمحاها صلى الله عليه وسلم بيده.

ثم تمت كتابة الصحيفة، وكان الصلح فيما بعد فتحاً للمسلمين، ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [الفتح: 1].

فالتنازل عن الأمور الفرعية التي لا تضرك يورثك سماحة وتسامحاً، أما ثوابت دينك وعقيدتك وشريعتك فعض عليها بالنواجذ وخذ كتابك فيها بقوة؛ ولو خاصمك فيها المبطلون وعاداك فيها المعادون.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [التوبة: 23].

خامسها الأخير: اطلب حَقَّك برفق وإحسان، واقبل نُصْحَ الناصحين لك.

إذ لاخير في قوم ليسوا بناصرين، ولا خير في قوم لا يحبون الناصحين.

أخرج البغوي في شرح السنة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال صلى الله عليه وسلم: «خيارُكم مَنْ إِذَا كَانَ عَلَيْهِ الدِّينُ، أَحْسَنَ الْقَضَاءِ، وَإِنْ كَانَ لَهُ، أَجْمَلَ فِي الطَّلَبِ، وَشِرَارُكُمْ مَنْ إِذَا كَانَ عَلَيْهِ الدِّينُ، أَسَاءَ الْقَضَاءِ، وَإِنْ كَانَ لَهُ أَفْحَشَ فِي الطَّلَبِ».

أيها الإخوة:

هذه خمسة تعين أحداً على التخلص بخلق السماحة والتسامح:

1- بادر الناس بالتحية والسلام، واستقبلهم بالبشر والابتسام.

2- غض بصرك عن زلات إخوانك فكلنا خطاء، واقبل معذرة من اعتذر إليك.

3- اختر الأيسر والأسهل في كل أمر تُخَيَّرُ به ما لم يكن إثماً.

4- تنازل عن الأمور الفرعية التي لا تضرك.

5- اطلب حَقَّك بشكل حسن لين، لا غضب فيه ولا توبيخ، واقبل نصح الناصحين لك.

والحمد لله رب العالمين